

يُطْمِعُنِي لِحَظِّهَا ، وَيؤْنِسُنِي بِاللَّفْظِ مِنْهَا فَوَأْدَهَا الْقَاسِي (١٠٤)

إن ما في هذه القصيدة لا يخرج عما ذكره أبو عثمان الجاحظ عن هذه الطائفة من النساء ، فهذه الجارية تحدّث أبا نواس بما يجعله يطعم فيها ، ولا تلبث أن تبتعد عنه ، أو هي تنظر إليه بلحظ يجعله يظن أنها قريبة المنال ، ثم لا تلبث أن تدخل اليأس في نفسه ، إنها نديم له تجالسه على الشراب ، وتطلب منه أن يطرد النوم ، ويطلب منها أن تشرب ، وتدرك ما يرمى إليه من وراء سكرها ، وتكاشفه به ، وهو يصور ذلك في قوله :

وغيبتني أن أنالَ فَضْلَتَهَا في الكأسِ من شُرْبِها أو الطاسِ
ثم أظنُّ الحذارَ نَبَّهَهَا وما بها قد أردتُ من باسِ
قالت فدعْ عنك الاحتيالَ كما أردتْ سُكْرِي له وإنْ قاسِي

إن مثل هذا الحوار نجده عند الجاحظ في رسالته عن الإماء ، يقول الجاحظ عنهن : « إن القِيَنَةَ لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربصين ليقعوا في أنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد في مجلس السماع ، رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء » (١٠٥) . إلى آخر هذه الرسالة التي تحدث فيها الجاحظ حديث العارف الخبير بأمور القيان ، فعالم القيان - بوجه عام - يخلو من العاطفة الصادقة ، ومن العبت أن نبحت فيه عن عاطفة حب على نحو ما نجد عند جميل بن معمر أو العباس بن الأحنف أو أمثالهما من الشعراء الذين عرفوا بصدق العاطفة . ولا يعني أن يكون أبو نواس قد أحب بصدق أو لم يحب ، وإنما يعني أن يكون أبو نواس صادقاً في تصوير ما يرى وما يسمع ، وأن ينقل لنا بصدق ، وفي ثوب فني ، صورة ذلك المجتمع الذي يعج بالقيان ودور الغناء والشراب ، كما يعني أن أبا نواس قد خرج على عمود الغزل المعروف ، وأحدث فيه أمراً جديداً ، لم يكن مألوفاً من قبل ، فهو يحدثنا عن امرأة تنادمه وتنازعه الكأس ، وتذهب معه هذه المذاهب التي لا ترضاها امرأة كريمة على نفسها ، بل لا يرضاها محب على حبيته .

(١٠٤) المصدر نفسه ٣٠٦ .

(١٠٥) رسائل الجاحظ ، كتاب السقيان ٢ : ١٧١ وما بعدها .